أنور شاؤل

مذكرات صباغ أحذية

اسلوب مبتكر في نقد بعض المعايب الاجتماعية

نشرت متسلسلة في مجلة الحاصد الأسبوعية
في أعدادها 12 – 31 من سنتها السادسة
(16 تموز – 26 تشرين الثاني 1936)

(حقوق إعادة النشر بأية صورة كانت محفوظة لعائلة الكاتب)

ليلة ساهرة حتى الفجر!

بلغ بي الشرطيان الى المركز ولسوء حظي كان المأمور الموكول اليه امر التحقيق متغيباً في القيام بجولة تفتيشية في منطقته واذ وقع نظر رئيس العرفاء علي تنحنح على كرسيه وسأل بصوت اجش :

ـ هذا من ؟

باستطاعتي ان اقسم يميناً مغلظة على انه ظنني قاتلاً هارباً اوسارقاً قبض علي متلبساً بالجريمة .

فاجاب احد الشرطيين بينما الآخر ذهب ليتناول العشاء :

ـ مولانا قبضنا عليه خارجاً من الدار المعلومة رقم ( ) في شارع ( )

فقهقه العريف قهقهة عالية وقال باستهزاء :

ـ حتى صباغي الاحـــذية . . . ما شاء الله . . ! !

واخذ يضبط افادتي فسألني عن اسمي واسم والدي وعمري وشغلي ومحل سكناي وعما كنت افعله في الدار المعلومة (المعلومة منهم طبعاً وليس مني) فاستغرق التحقيق اكثر من ساعة واخيراً نادى العريف نفراً وامره بايداعي حجرة التوقيف ريثما يحضر مأمور المركز وينظر في امكان اطلاق سراحي بكفالة ام لا . .

واودعت حجرة متوسطة الاتساع ، مايئة بالروائح الكريهة حتى انني ظننت لاول وهلة انني موجود بمرحاض كبير ولـكنني ما لبثت ان علمت انها حجرة التوقيف التي ـ تسهيلاً واقتصاداً ـ يمكن للموقوفين التبول في داخلها بدون قيد اوشرط . يالسوء الحظ ! الى اية ساعة سيمتد توقيفي في هذا الصالون المعطر ؟ ومتى سيشرف المأمور ؟

تبادلت التحيات مع بعض الموقوفين هناك ورحت انتظر بفارغ الصبر . وبعد ساعة من اتعس ساعات حياتي سمعت طقطقة حذاء الخفر . انه يحيي المأمور فقلت في نفسي لقد دنت ساعة الفرج . ورحت اعد الدقائق ـ واذا بانتظاري يطول ويطول ويطول حتى انقطع رجائي . . وايقنت ان جناب العريف عافاه الله قد نسي امري !

هنا كان علي ان افكر في النوم ! ولـكن كيف يغمض لي جفن والبق والقمل والبرغوث يرقص الشارلستون على لحمي ويشرب الشمبانيا من دمي ! كان علي ان اسهر والالم يمض في قلبي ، انما خفف من مصابي ان لي معي شركاء في هذه السهرة اللعينة هم هؤلاء الموقوفون الذين يظهر انهم ،

وكانوا ثلاثة ، متهمون بجرائم خطيرة !

وبين حين وآخر عندما كانت الحسرات تهرب من فمي كان فكري يدور حول تلك الدار البغيضة المعلومة التي كانت مصدر هذا الشقاء . كنت احاول التفكير في امر ذينك السيدين المفضالين اللذين تشرفت بالتعارف معهما على عتبة الدار واللذين رجالي احدهما ليلة سعيدة . . ماذا تم من امرهما ياترى ؟

وهل سيكون نصيبهما كنصيبي ؟ . . . هذا شيء لا بد منه . . . لان القانون لا يعرف المحاباة . . . يتساوى امامه الكبير والصغير . . . لا شك انهم سيزورون هذه الحجرة الليلة ولو في ساعة متأخرة جداً . . !

ورحت اترقب تشريف السيدين الفاضلين . . لارد على احدهما تلك التحية الاخوية باحسن منها . . .

وكان علينا نحن الموقوفين المحكوم علينا بالسهر - وقد كنت اسوءهم حالاً - ان نقتل الوقت بشتى الاحاديث لئلا يقتلنا الهم فراح كل واحد يستهل احاديثه بالتهمة التي اوقف من اجلها ويزعم انه براء منها براءتي انا من مساوئ الدار « المعلومة » !

قال اولهم انه متهم بجريمة اليمين الكاذبة فسألت وهل من عقاب لمن يؤدي يميناً كاذبة فقيل لي واي عقاب شديد فقلت ولماذا اذن لا يعاقبون اولئك الذين يحلفون كل يوم اغلظ الايمان كذباً وبهتاناً ؟ فسئلت امثال من تعني ؟

- اي بائع لا يكذب عند حلفه اليمين ؟ اي دلال ؟ واي تاجر ؟ لو قدر لاحد ان يعد الأيمان الكاذبة التي حلفها عمي . . وجارنا المتمول . . اذن لكان على احدهما ان يعيش مائة قرن - لا مائة سنة - ليؤدي ما يحق عليه من المحكومية . . .

هنا تهامس الاخوان الموقوفون استحساناً لحديثي واعجاباً بتعليقي اما الثاني فقال انه متهم بجريمة نصب واحتيال بلغت قيمة الفائدة التي حصل عليها من وراء ارتكابها إثنين واربعين فلسا . . .

وانتظر الاخوان تعليقي على الموضوع وتطلعوا الي . . . حاولت ان اسكت هذه المرة ولكنني خفت ان ينسبوا الي العجز فقلت :

- حسناً وهل على النصب والاحتيال عقاب فاجاب الكل :

- دون شك . !

- اذن ما لهم لا يعاقبون نصابي السياسة ومحتالي الدول ... اسجن لمن ينصب على فرد وتعظيم لمن ينصب على العالم باسره ! كم من محتال نصاب ، يعرف الناس انه نصب في القضية الفلانية واحتال في القضية الفلانية ومع ذلك تراهم يحرقون له البخور ولئن كان الساسة في رأس القائمة فان علينا ألا ننسى باقي صنوف المحتالين والنصابين

والافاكين . حقاً لو كان بوسعنا حبس كل محتال يصعب علينا كثيراً ان نجد من يقوم بمهمة الحراسة في العالم .

وعندما جاءت دورة الثالث للكلام كان قد أخذته سنة النوم فلم نسمع منه سوى شخير مزعج . قلت في نفسي حبذا لو كان بامكاني ان اخرق حجب الغيب واطلع على ما يحلم به الساعة . .

ومر الليل بطيئاً . واذ انا متطلع من نافذة الموقف إذ لاح لي خيط الفجر فرحت اتنفس نسماته المنعشة !

وفي الصباح مثلت بين يدي مأمور المركز وهو شاب تلوح على محياه سيماء الذكاء لا شك انه تخرج حديثاً من مدرسة الشرطة دلني على ذلك امران اولهما كونه نائب مفوض وثانيهما كونه لبقاً نشيطاً قد وضع قانون العقوبات قريباً من يده .

وبعد تدقيق بعض مواد القانون اوعز الى العريف بلهجة رزينة :

ـ اطلق سراحه حالاً ... ليس هناك مادة تنطبق على عمله !

ورامقني بنظرة وهو يبتسم :

اذهب الى حال سبيلك . . . فانت حر طليق . !

غادرت المركز وانا مغتبط من الفصل الأخير لهذه المأساة الغريبة وفي الطريق كان امر واحد يشغل بالي ويثير اهتمامي . نسيت موقفي المزري عندما ساقتني الشرطة الى المركز بتهمة غشيان الدور المشبوهة .. نسيت تلك السهرة الاليمة التي فلما ذكرها التاريخ ... وعضات البق والنقرس نسيت رفقائي الثلاثة وما عاد يهمني ماذا حدث او سيحدث من امرهم انما امر واحد كان يشغل بالي كثيراً . امر واحد كنت مستعداً لمنح ثلاث سنوات من عمري لمعرفة ما آل اليه ... هو هل القت الشرطة القبض على ذينك السيدين الفاضلين عند خروجهما من تلك الدار المعلومة !

مشهد من وراء الباب

مرت الايام الاولى من عهدي الجديد بطيئة ثم راحت تسير سيرها الاعتيادي. كنت استعرض كل يوم عدة مشاهد من الحياة فاذا بي اصبحت جلداً متصلباً قلما تروعني مآزق الحياة!

طرقت باب عائلة اعتدت ان اصبغ احذيتها عصر كل يوم فلم يفتح لي الخادم الباب على عجل! توجست خيفة وحاولت الانصراف ولكن الخادم مالبث ان فتح الباب وأجلسني على العتبة قائلاً ان ربة البيت قد اغمي عليها على اثر خصام شديد حصل لها مع زوجها وليس من المناسب الدخول الى الدار في حالة كهذه.

رحت اصبغ الاحذية على العتبة ومدفوعاً بغريزة حب الاستطلاع سألت صديقي الخادم:

ـ وماذا كان سبب الخصام؟

فشرح لي ان السبب يلخص في ان الزوجة اعتادت اسبوعياً ان ترود المخازن الكبرى في العاصمة وتبتاع لوازمها بالدين وقد منعها زوجها مراراً عديدة فلم يفلح وفي هذا اليوم، وقد كان اليوم الاول من الشهر، تسلم الزوج قوائم صرفيات زوجته الشهرية.. فاذا بها قد بلغت اربعة عشر ديناراً.. ثار ثائر الزوج عند اطلاعه على هذه القوائم، فارغى وازبد ولعن يومه وثار ثائر الزوجة وارغت وازبدت ولعنت يومها! انه قال لها:

ـ ان تبذيرك هذا يقودنا الى الهلاك الى الفضيحة.. الى الجوع!

وانها قالت له:

ـ ان بخلك هذا سيقودنا الى البهدلة، الى سخرية الناس.. ماذا؟ اتظن انني يجب ان اظهر بملابس عتيقة او ممزقة... او ان اظهر عريانة..!

كلمة منه وكلمة منها، شتيمة منه وشتيمة منها، اضف الى ذلك عصبية امتاز بها الزوجان كل هذا ادى الى ان يتماسكا (هنا استعذت بالله من شر هذه الحادثة) فرفسها رفسة لا يأس بها فهوت الى الارض..!

كان الخادم يقص علي حديث سادته بصوت منخفض وكنت انا اسمع واصبغ في آن واحد حتى اذا فرغ من حديثه فرغت من صبغي فودعته وعلى شفتي ابتسامة خاطفة!